تعلمت من يوسف عليه السلام

تلخيص المحاضرة الثالثة

فصبر جميل

تبدأ آيات سورة يوسف بمشهد ذهاب إخوة يوسف به بعد إلحاحهم على أبيهم يعقوب عليه السلام ليأذن لهم بأخذه معهم، بينما كان يعقوب يخشى عليه وقال:
{ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ } ، لكنهم طمأنوه قائلين: { قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ }
ومن هذه الآيات يتبادر إلى الأذهان تساؤلان: هل قاعدة "البلاء موكل بالمنطق" صحيحة؟ وهل تنطبق على يعقوب عليه السلام؟

القضية تكمن في أن كلام الإنسان قد يكون سببًا لجلب الخير أو الشر، لأن المنطق يعكس ظنه بالله، فمن أحسن الظن وقال كلامًا إيجابيًا استجلب خيرًا، ومن أساء الظن بكلام سلبي فقد ينعكس عليه بالسوء، إذ قال النبي ﷺ:" أنا عند ظن عبدي بي" .
يتجلى هذا المفهوم في مواقف عدة، منها عندما زار النبي ﷺ مريضًا وقال له: "لا بأس، طهور إن شاء الله"، لكن الرجل رد بسوء ظن: "بل حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور"، فقال له النبي ﷺ : "فلتكن إذاً"، فمات الرجل كما ظن. والعكس، كان النبي يحب الفأل الحسن، كما في غزوة بدر حين قال عن جيش المشركين: "هذه قريش قد ألقت إليكم بأفلاذ أكبادها"، فكان النصر حليف المسلمين، وكذلك في معركة أخرى، حين قال: "هذه غنيمة المسلمين غدًا بإذن الله"، فكانت لهم الغلبة.
أما يعقوب عليه السلام، فلم يكن كلامه استجلابًا للبلاء، فهو لم يقل "سيأكله الذئب"، بل عبّر عن خوفه بقوله: {وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ} ، وهناك فرق بين الجزم بالشر وبين التعبير عن القلق. ولو كان كلامه سببًا مباشرًا للبلاء، لكان الذئب قد أكل يوسف، لكنه لم يحدث.

ومن اللافت أن يعقوب، دون أن يشعر، لقّن أبناءه الحجة التي استخدموها لاحقًا عند عودتهم بالكذب، وهذا يبرز قاعدة مهمة: "حكاية الشر أمام أهل الشر تعينهم عليه"، فالحديث عن الشر قد يكون مصدر إلهام للمفسدين، لذا كان نهج القرآن في عرض القصص هو الاختصار في ذكر الشر، والتوسع في الخير، حتى يكون التأثير إيجابيًا.
وهكذا، فإن الحديث الإيجابي ليس مجرد كلمات، بل هو انعكاس لظن الإنسان بالله، ووسيلة لاستجلاب الخير، بينما الحديث السلبي قد يكون استدعاءً للضرر، ولذا وجب أن ندرب أنفسنا على الكلام الطيب الذي يجلب التفاؤل والبركة.

أثر الكلمة في صناعة القدر: بين الإيجابية والحذر من الشر

في قصة يوسف عليه السلام، تتجلى لنا حكمة الكلمة وأثرها في مجرى الأحداث. فالمنطق والكلام يعكسان ظن الإنسان بربه، ومن حسن ظنه بالله تفاءل بالكلام الطيب، فكان الخير حليفه، ومن أساء الظن واسترسل في الحديث السلبي، قد يجر على نفسه ما لا يحمد عقباه.

يتضح ذلك جليًا في مواضع عدة، منها قول الرجل الذي وجد يوسف عليه السلام في البئر: { يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ } (يوسف: 19)، فقد رأى يوسف بشرى، وكان كذلك لمن حوله، بل ولأهل مصر جميعًا. وكذلك قول عزيز مصر لزوجته: {أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ} (يوسف: 21)، فكان حسن الظن بالكلام الطيب سببًا في انتفاع مصر كلها بيوسف عليه السلام.

أما يعقوب عليه السلام، فلم يكن كلامه سلبيًا، بل كان تعبيرًا عن خوفه، فقال: {إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ } (يوسف: 13).

هناك فرق بين الجزم بحدوث الشر وبين التعبير عن القلق

ولذلك لم يتحقق ما خشيه، لأن البلاء لا يقع بمجرد التعبير عن المخاوف، بل بالأحرى عند الجزم به بسوء ظن بالله.

ومع ذلك، فإن كلماته قدمت دون قصد الحجة لإخوته، فاستغلوها لتبرير جريمتهم. وهنا تتجلى قاعدة عظيمة: حكاية الشر أمام أهل الشر تعينهم عليه ، فالكلام العفوي قد يصبح أداة في يد المفسدين، لذا كان نهج القرآن في القصص تقليل ذكر تفاصيل الشر، مقابل التوسع في ذكر الخير، حتى لا يتخذ الأشرار من تلك التفاصيل ذريعة لأفعالهم.

من هنا، ندرك أهمية تدريب أنفسنا على اختيار الكلمات، فالحديث الإيجابي ليس مجرد قول، بل هو انعكاس لثقتنا بالله، واستجلاب للخير، بينما الحذر من نشر تفاصيل الشر يقي الناس من الوقوع فيه.

خطر شيوع الفاحشة وأثره في تطبيع الشر

إن للكلمة أثرًا عظيمًا، فهي إما أن تكون نورًا يهدي القلوب، أو نارًا تشعل الشر في النفوس. في القرآن الكريم، نجد أن القصص الإلهية تختصر مشاهد الفساد والشر، بينما تتوسع في تصوير الخير، لأن تفصيل مشاهد الفاحشة والإجرام لا يفيد الجميع، بل قد يصبح دليلًا لمن كان في قلبه ميلٌ للشر.

على العكس من ذلك، نجد أن القصص الأرضية، كالأفلام والمسلسلات، تمعن في تصوير مشاهد الفساد، وتقضي أغلب وقتها في عرض الشر بحجة الواقعية، بينما تترك للحلقة الأخيرة درسًا أخلاقيًا لا ينتفع به إلا القليل، بعد أن يكون الشر قد تغلغل في النفوس. وهذا ما نراه في الواقع، حيث تنتشر الجرائم بأساليب مستوحاة من تلك الأعمال، فيقتل الزوج زوجته كما رأى في المسلسل، ويسرق الشاب البنك كما تعلّم من الفيلم، بل حتى حالات الانتحار وقعت بسبب معرفة الناس بأساليبها من خلال المشاهد الدرامية.

ولذلك، نهى الله تعالى عن إشاعة الفاحشة، حتى لمن لم يرتكبها، فقال: { إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ } (النور: 19) فإن كان مجرد حب إشاعتها يستوجب العذاب الأليم، فكيف بمن ينشرها ويجعلها مألوفة للناس؟ وكيف بمن يفعلها ويرتكبها؟

إن كثرة الحديث عن الفواحش، سواء في الإعلام أو في المجالس، يهوّن من وقعها في القلوب، ويجعلها مألوفة ومقبولة، حتى تصبح النفوس مهيأة لفعلها. لذا، علينا أن ننتقي كلماتنا، ونتجنب الحديث عن الشر، ونغرس الإيجابية في ألسنتنا وعقولنا، حتى يكون حديثنا سببًا في نشر الخير، لا أداةً لنقل الشر وتعليمه.

الكلمة الطيبة والتفاؤل.. درع في مواجهة السلبية والقسوة

أصبحت السلبية اليوم عنوانًا للتفكير، وأضحى التشاؤم والانتقاد المفرط من مظاهر "الوعي الزائف"، حيث يتنافس البعض في الحديث عن الظلام واليأس وكأنها علامة على الذكاء والواقعية. لكن رسول الله ﷺ نبّهنا إلى خطر هذا السلوك فقال: "من قال هلك الناس فهو أهلكهم"، أي أنه إما كان سببًا في هلاكهم، أو كان هو الأكثر فسادًا بينهم بنشره لهذا الفكر.

الكلمة الإيجابية لا تغير الواقع فقط، بل تصنعه.

حين نواجه التحديات، علينا أن نختار كلماتنا بعناية، فبدلًا من القول: الأوضاع سيئة، نقول: بإذن الله، الأمور ستتحسن ، وبدلًا من اليأس من الأبناء، نقول: سيكونون بخير، وسينجحون بعون الله . الكلمات الطيبة ليست مجرد عبارات، بل هي بذورٌ تُزرع في النفوس لتنبت تفاؤلًا وأملًا.

لا تحكِ الشر أمام أهل الشر

من أعظم الدروس التي يعلمنا إياها القرآن هو عدم تمكين أهل الشر من أدوات الشر ذاتها.

فعندما عبّر سيدنا يعقوب عن خوفه على يوسف عليه السلام بقوله: {وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ}، التقط إخوته هذه الفكرة وجعلوها حجةً لمؤامرتهم. فذكر الشر أمام من ينوي ارتكابه قد يكون دافعًا له لتنفيذه.

قصة يوسف.. تجسيد لقسوة القلوب عندما يعميها الحقد

حين اجتمع إخوة يوسف على أذيته، لم يكن هناك فاصل بين إظهار الحب أمام الأب، وإطلاق العنان لحقدهم بمجرد أن غابوا عن ناظريه. بدأوا بشتمه وضربه، ثم ألقوه في البئر بوحشية تقطع نياط القلب. كان كلما استنجد بأحدهم، زاده قسوةً وصفعًا. وفي ظلام البئر، وقف يوسف وحيدًا، تحيط به المخاوف والآلام، لكنه لم يكن وحيدًا حقًا، فقد أحاطه الله برحمته، وأنزل عليه السكينة التي كانت له عزاءً وسندًا.

العبرة هنا عظيمة:
1- الحسد والحقد قد يدفع الإنسان إلى أقسى درجات الظلم.
2- السكينة الإلهية هي الملجأ حين تضيق بنا السبل.
3- لا تفتح لأهل الشر أبواب الشر بذكره أمامهم.
4- اجعل حديثك طيبًا، فالطاقة الإيجابية تصنع مستقبلًا أكثر إشراقًا.
فلنحذر من كلماتنا، فإنها تصنع واقعنا، ولنجعل التفاؤل والأمل منهج حياتنا، كما كان نهج الأنبياء والصالحين.

نور الأمل وسط ظلمات المحنة

حينما اشتد الظلام على يوسف، وبلغت المحنة ذروتها، تجلَّت رحمة الله في هيئة وحي وإلهام، كما قال تعالى: { وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ }

لكن ما المقصود بالوحي هنا؟

ليس وحي النبوة، بل وحي الإلهام والتثبيت، ذلك الوحي الذي يرسله الله ليهدِّئ القلوب المضطربة، كما أوحى لأم موسى أن تُلقي طفلها في اليم، وكما أوحى للنحل أن تتخذ الجبال بيوتًا. إنه الإعلام في الخفاء، رسالة خفية من الله تمنح القلب يقينًا وسط العاصفة، وتزرع في النفس الطمأنينة حين يظن الإنسان أن لا مخرج.

قسوة القلوب حين يعميها الحقد

ما أبشع أن يأتي الألم من أقرب الناس إليك! أظهر إخوة يوسف له الودَّ أمام أبيهم، لكن ما إن انفردوا به حتى تحوَّل الحسد إلى وحش ينهش قلوبهم. انهالوا عليه بالضرب والإهانة، وحينما تعلَّق بأحدهم مستنجدًا، لم يجد إلا الصد والضرب.
لم يكتفوا بإلقائه في البئر، بل قطعوا الحبل في منتصف الطريق، ليرتطم جسده الصغير بالماء، ويجد نفسه وحيدًا في ظلمة الليل وظلمة الجب، بلا أنيس سوى ضوء القمر وانعكاس صورته المرتجفة على سطح الماء.

كم من أسئلة دارت في ذهنه في تلك اللحظة؟
لماذا فعلوا ذلك؟ أين أبي؟ هل سأراه مجددًا؟ ماذا عن أخي الصغير؟ أي مصير مجهول ينتظرني؟

رحمة الله حين يشتد العسر

في تلك اللحظة التي كاد قلبه يرتجف فيها من الخوف، جاءت رحمة الله كالبلسم، سكينة نزلت على قلبه، طمأنينة أنسته الوحشة، ووهبته الثبات. فالله لا يترك عباده، وإذا اشتد الظلام لاح الفجر، وإذا ضاق الحال جاء الفرج، وإذا اضطربت القلوب أرسل الله سكينته كما قال: { ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ }.
الدرس الأعظم: لا تستهِن بالكلمة الطيبة، فبها يزرع الأمل، وبها يغير الله الواقع، كما غيَّر ظلمة البئر إلى نور الملك، والمحنة إلى منحة، واليأس إلى يقين.

حسن الظن بالله وأثره في تجاوز المحن .

تتضمن الآية الكريمة { وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} معنيين متكاملين : الأول أن الله أوحى إلى يوسف بأنه سيخبر إخوته بما فعلوه في المستقبل، والثاني أن الإخوة لم يكونوا على علم بهذا الوحي حين وقوعه. وهذا يبرز بُعدًا هامًا في فهم الأقدار الإلهية، حيث تُدار الأمور بحكمة إلهية لا يدركها الإنسان في لحظتها.

تحول المحنة إلى منحة

تكشف قصة يوسف عليه السلام عن قانون إلهي مهم: الأقدار التي تبدو مؤلمة قد تكون وسيلة لتحقيق الخير الأعظم. فإلقاؤه في البئر، رغم قسوته، كان مقدمةً لبلوغه الملك والتمكين. وهذا يدعو إلى إعادة النظر في المصائب، حيث قد يكون الألم الحالي هو نفسه بداية التمكين في المستقبل، سواء على مستوى الأفراد أو الأمم.

أهمية حسن الظن بالله

تؤكد القصة أن حسن الظن بالله مفتاح لتحمل الابتلاءات، فالمؤمن مُطالب برؤية الخير في كل حدث، حتى وإن بدا ظاهره مؤلمًا. فكما قال يعقوب عليه السلام: "فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين"، فإن رعاية الله لعبده تفوق أي رعاية بشرية، حتى لو بدت الظروف قاسية في ظاهرها.

الوحي الإلهي والسكينة

ليس الوحي مقتصرًا على الأنبياء ، بل يمكن أن يكون إلهامًا وتثبيتًا يلقيه الله في قلوب المؤمنين في أوقات الشدة، وفقًا لمقدار الإيمان والتقوى. وقد تجلى ذلك في سكينة أهل غزة وأمثالهم ممن واجهوا المحن بإيمان وثبات، مما يثبت أن الطمأنينة والسكينة الإلهية واقع ملموس يحصل لمن امتلأ قلبه بالإيمان واليقين.

تدعونا القصة إلى تغيير نظرتنا إلى الأقدار المؤلمة، والتعامل مع الأزمات بحسن ظن بالله، فكل محنة قد تخفي وراءها منحة عظيمة. والثقة في الله تعني الإيمان بأنه مهما بدت الظلمة حالكة، فإن نور الفرج قادم لا محالة.

فوائد مستخلصة من قصة يوسف عليه السلام

1- التوكل على الله وحده:

في قوله تعالى: { فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ } (يوسف: 15) ، نرى تطبيقًا عمليًا لحديث النبي ﷺ: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك". فلا ينبغي أن يتعلق قلب الإنسان بالناس خوفًا أو رجاءً، فالأمر كله بيد الله وحده.

2- حتمية انتصار المظلوم:

كل مظلوم سيُنبئ ظالمه بفعله، سواء في الدنيا أو يوم القيامة، حيث سيوقفه الله بين يديه ليسأله عن ظلمه. كما أن الله يُريح قلوب المظلومين بتمكينهم من رؤية عاقبة الظالم، كما يُطلع أهل الجنة على أهل النار ليشهدوا تحقق عدل الله.

3- انقلاب المِحنة إلى مِنحة:
سُقِط يوسف عليه السلام في البئر، فرفعه الله إلى عرش الملك. وهذا درسٌ عظيم بأن الأقدار التي تبدو قاسية قد تكون بدايات التمكين، فلا يقاس الخير بظاهره، بل بعاقبته.
4- ليس كل إجماع معتبرًا:
اجتماع إخوة يوسف كان على باطل، مما يبين أن الإجماع لا يكون حجة إلا إذا صدر عن أهل الاختصاص والثقة، سواء في الفقه أو التفسير أو غيرها من العلوم. فلا يُعتد بإجماع غير المؤهلين، ولو كثر عددهم.
5- الصبر مفتاح الفرج:
تعرض يوسف عليه السلام لضيقات متتالية: ضيق البئر، ثم السجن، ثم المحنة في بيت العزيز، حتى جاءه الفرج من أوسع الأبواب.

وهذا يعلمنا أن الفرج لا يأتي إلا للصابرين، كما قال: {إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} (يوسف: 90). فالفرج ليس عشوائيًا، بل يأتي لمن جمع بين التقوى، الصبر، والإحسان.
6- استحضار حسن العاقبة يعين على الصبر:
كان يوسف عليه السلام مطمئنًا رغم ابتلاءاته، لأنه أيقن أن النهاية ستكون خيرًا. ونحن لدينا وحي يخبرنا بأن عاقبة المؤمنين خير، وأن الجنة جزاء المظلومين والمجاهدين في سبيل الله. فمن أيقن بجمال النهايات، سَهُلَ عليه تحمل الابتلاءات.
أى أن:
قصة يوسف عليه السلام تعلمنا أن الأقدار لا تُقرأ بلحظتها، بل بعاقبتها، وأن الفرج قد يأتي من حيث لا نحتسب، إذا تحقق في القلب الإيمان بحكمة الله، وحُسن الظن به، والصبر على قضائه.

التلاعب بالمشاعر: مشهد الخداع المحكم
{ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ } (يوسف: 16).
يا لها من براعة في التمثيل! ويا له من إتقان في الخداع والمكر! إن الإنسان إذا أراد الغدر، تفنن في وسائله، حتى تفوق على كل المخلوقات. لقد جاؤوا أباهم بعيونٍ دامعة، وقلوبٍ راقصة طربًا بانتصار مكيدتهم، في مشهد يجسد قدرة الإنسان على الازدواجية بين المظهر والمخبر، بين الدموع التي تنهمر كذبًا، والقلوب التي تخفي الفرح بانتصار الحيلة.
دموع التماسيح: ليست كل دمعة صادقة
إن البكاء في حد ذاته ليس دليلًا على الصدق، فالعبرة ليست بملامح الوجه، بل بقرائن الحال.

فكم من دموعٍ انهمرت، وحقيقتها ليست سوى ستار يخفي مكرًا وخداعًا. هؤلاء الإخوة لم يكنّ بكاؤهم تأثرًا، بل كان وسيلة لإخفاء ما في صدورهم من كيدٍ وحقد، فاختاروا الليل غطاءً ليخفوا به ما قد تفضحه وجوههم من علامات الخداع والنشوة بما ارتكبوه.

قلب الأب المكلوم ووقع الخبر الصادم

لم يقل الله تعالى: وجاؤوا إلى البيت ، بل قال: { وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ } ، وكأن الأب كان ينتظرهم بلهفة وقلق منذ لحظة فراق يوسف، مترقبًا عودته، متوجسًا من تأخرهم. لكنه لم يكن يتوقع أن تأتي الصدمة بهذا العنف، فقد ألقوا في وجهه ادعاءهم القاسي: { أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ } دون مقدمات، دون تمهيد، دون مراعاة لقلب الأب المفجوع.

فالمحب الحقيقي يخشى أن يؤذي من يحب ولو بكلمة، أما هم فلم تكن قلوبهم تحوي إلا أنانية قاتلة، جعلتهم يقذفون بالكلمة دون اكتراث لمشاعر أبيهم.

الحيلة المدروسة: اختيار توقيت الليل

لقد تأخروا حتى حلول العشاء، لم يعودوا في وضح النهار، لأن النور يفضح ما تحاول الوجوه إخفاءه. اختاروا ظلام الليل حتى لا يُرى في أعينهم بريق الخداع، حتى لا يُفضح في ملامحهم أثر الفرح بغياب يوسف. فأرادوا أن تكون أصوات البكاء وحدها هي الشاهدة، علها تخدع قلب الأب الحزين.

العبرة من المشهد

ليس كل من يبكي صادقًا، وليس كل ما يلمع ذهبًا. فالعين قد تدمع والقلب يضحك، واللسان قد ينطق بالأسى والروح ترقص فرحًا. فاحذر أن تخدعك الدموع، وتأمل دائمًا في القرائن المحيطة، فربما كان الباكي أشد الماكرين، وكان الحزين أكثر المسرورين.

خيوط الكذب الواهية: بين شك يعقوب ومكر الإخوة

{ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ } (يوسف: 17)

جاء إخوة يوسف حاملين رواية ملفقة، تفتقر إلى الحبكة، فكانت أولى علامات الريبة والتناقض واضحة منذ البداية. بالأمس كانوا يلحّون على أبيهم ليأخذوا يوسف معهم ليلعب ويمرح، ثم فجأة يصبح يوسف هو الحارس للأمتعة بينما هم ينشغلون باللهو؟ كيف لمن أراد اللعب أن يتحول إلى حارس للمتاع؟! تناقض صارخ جعل الشك يتسلل إلى قلب يعقوب عليه السلام منذ اللحظة الأولى.

الريبة في كثرة التأكيد

ثم جاء تأكيدهم المفرط ليكشف زيفهم، فقالوا: { وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ }، وكأنهم يُقرّون مسبقًا بأن ما يقولونه غير مقنع. فالمؤمن الصادق لا يحتاج إلى أن يكرر تأكيد صدقه، ولا أن يقسم على ذلك، لأن الصدق يفرض نفسه بلا تكلف.

ولكن الكاذب مهزوز الثقة بنفسه، يحاول جاهدًا أن يُقنع غيره بما لا يستطيع هو تصديقه في داخله. وكما قيل: "يكاد المريب أن يقول خذوني".

القميص الفاضح: دليل الإدانة

ثم جاءت الكذبة الكبرى: { وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ } .

أرادوا أن يجعلوا القميص شاهدًا على موت يوسف، ولكنهم نسوا أبسط تفاصيل حبكتهم. وضعوا الدم، ولكنهم لم يمزقوا القميص! فأي ذئب هذا الذي ينهش جسدًا ولا يمزق ثيابه؟! كانت هفوة مكشوفة، أوقعهم الله فيها ليكون في وسط الألم بصيص أمل ليعقوب عليه السلام.

القميص: رسالة مزدوجة بين الحزن والرجاء

لقد كان القميص يحمل في طياته مشاعر متضاربة، فهو من جهة دليل زائف على الفقدان، لكنه في الوقت ذاته يحمل بشرى غير معلنة: يوسف لم يؤكل، ولم يُقتل.

إن كان الذئب قد افترسه، فأين آثار الهجوم؟! هنا أدرك يعقوب عليه السلام أن الأمر ليس كما يدّعون، وأن يوسف ما زال على قيد الحياة، وإن كان مفقودًا.

اليقين المستند إلى الرؤيا

ورغم أن يوسف قد غاب عن ناظريه، فإن قلب يعقوب ظل متعلقًا بأمل اللقاء. فقد كان يحمل في صدره يقينًا مصدره الرؤيا التي رآها يوسف يومًا، والتي لم تتحقق بعد. لقد رأى يوسف أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يسجدون له، فطالما لم يتحقق ذلك، فلابد أن يوسف ما زال حيًا، وأن الله سيجمعه به يومًا ما.

ومضت السنون، أربعون عامًا كاملة، ويعقوب لا يزال متيقنًا من أن يوسف لم يمت، حتى قال في شيخوخته: { يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ } (يوسف: 87).

كيف لرجل أن يبحث عن ابنه المفقود بعد كل هذا الزمن إلا بيقين لا يتزعزع؟!

لقد اجتمعت أمام يعقوب دلائل عدة: التناقض في القصة، كثرة التأكيد على الصدق، القميص غير الممزق، وأخيرًا الرؤيا التي كانت وعدًا إلهيًا لا بد أن يتحقق. فتيقن أن يوسف حي، لكنه لا يعلم أين هو، ولا كيف يصل إليه. أما إخوته، فقد أصروا على كذبتهم حتى النهاية، لكن الله كان يدبر ليوسف ما هو أعظم من كل مكرهم.

الصبر الجميل: سلاح في مواجهة الابتلاءات

في قصة يوسف عليه السلام، تتجلى معاني الابتلاء والصبر في أبهى صورها، إذ لم يكن اختبار يعقوب عليه السلام مجرد فقدان ابنه، بل كان في مواجهة كذبٍ محكم من أقرب الناس إليه، أبنائه. قمة الألم لم تكن فقط في غياب يوسف، بل في تفاصيل القسوة التي تعرض لها، حيث جُرّد من قميصه وأُلقي في البئر، يواجه البرد والوحشة بلا حول ولا قوة. ومع ذلك، كان يقين يعقوب في الله أقوى من كل الدلائل الظاهرة، مستندًا إلى الرؤيا التي لم تتحقق بعد، وإلى قناعته بأن الله لا يخلف وعده.

مثال تطبيقي على الصبر الجميل

حينما يصل الإنسان إلى مرحلة لا يملك فيها أي وسيلة لتغيير الواقع، يكون الصبر الجميل هو الحل الأمثل، لا بوصفه استسلامًا، بل باعتباره استراتيجية قوية. الصبر الجميل هو الصبر الذي يخلو من الجزع والتسخط، ويترافق مع حسن الظن بالله والثقة في تدبيره.

هذا المفهوم تجسد مرة أخرى في حادثة الإفك، عندما وجدت السيدة عائشة رضي الله عنها نفسها في موقف لا تستطيع إثبات براءتها، ولم تجد ملجأ إلا قول يعقوب عليه السلام: { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ }. وعندما اختارت الإعراض عن الجميع، جاء الفرج من عند الله بآيات تتلى إلى يوم القيامة تبرئها.

الصبر كحل عملي

غالبًا ما تواجهنا مشكلات تبدو بلا حل، سواء في الأسرة أو العمل أو العلاقات الاجتماعية، وحين تنعدم الخيارات المتاحة، يصبح الصبر الجميل أعظم وسيلة للخروج من الأزمة. كثيرون ينظرون إلى الصبر على أنه مجرد انتظار سلبي، لكنه في الحقيقة قرار استراتيجي، يتطلب ثقة بالله وحسن تدبير. وكما رأينا في القصص القرآني، فإن من يصبر صبرًا جميلًا يجد الفرج يأتيه من حيث لا يتوقع.

الدرس المستفاد

حين تواجه أزمة تبدو مستعصية، وتنفد جميع الحلول البشرية، تذكر أن هناك بابًا لا يغلق: { عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا } . فاليقين بوعد الله، والصبر الجميل، قد يكونان أعظم أسباب الحل، ولو بعد حين.

الصبر الجميل: قوة إيمانية ومفتاح الفرج

الصبر ليس علامة ضعف أو استسلام، بل هو سلاح قوي مستمد من الإيمان بالله والثقة في تدبيره. فهو ليس مجرد انتظار بلا فعل، وإنما هو توكل على الله والاعتماد عليه في مواجهة الابتلاءات. قال تعالى: { وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ } ، مما يوضح أن الصبر الصحيح يعتمد على استمداد القوة من الله.

الصبر الجميل: معناه وأبعاده

الصبر الجميل هو ذلك الصبر الذي يخلو من الجزع والشكوى لغير الله، كما قال بعض العلماء: "الصبر الجميل هو الصبر بلا شكوى". فلا يصح أن يكون الصبر مصحوبًا بأفعال تدل على السخط، مثل اللطم أو شق الثياب أو التعبير عن الغضب بطرق غير سوية، لأن ذلك يتنافى مع حقيقة الصبر.

في حادثة الإفك، عندما واجهت السيدة عائشة رضي الله عنها اتهامات باطلة ولم تجد من يصدقها، لم يكن أمامها سوى اللجوء إلى الله بقولها: { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ } ، فجاء الفرج من عند الله ببراءتها في آيات تتلى إلى يوم القيامة.

سيدنا يعقوب عليه السلام، رغم فقدانه ليوسف وغياب الأسباب الظاهرة، لم يفقد الأمل، بل ظل موقنًا بقدرة الله على جمع شمله بأبنائه، فقال: {عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۖ } ، فكان ظنه بالله حسنًا، وكانت النتيجة أن الله أتم له ذلك.

التوكل على الله وحسن الظن به

قول يعقوب عليه السلام: { وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ } ليس مجرد عبارة تُقال لإنهاء الحديث، بل هي منهج حياة يعكس التوكل الحقيقي على الله.

حسن الظن بالله شرط أساسي للصبر الجميل، إذ يجب أن يكون الإنسان متيقنًا أن الله يدبر له الخير حتى لو لم تظهر الأسباب أمامه.

كيف نمارس الصبر الجميل؟

1- الامتناع عن الشكوى لغير الله: الصبر الجميل يعني عدم نشر الشكوى للناس، بل رفعها إلى الله.

2- ضبط الجوارح والمشاعر: لا يكون الصبر جميلًا إذا صاحبه غضب أو تصرفات تعكس السخط.

3- الثقة في وعد الله: مهما بدت الظروف معقدة، فإن الله قادر على تغييرها، كما حدث مع يعقوب وعائشة رضي الله عنها.

4- التوكل الحقيقي: قول { وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ } يجب أن يكون تعبيرًا عن الثقة بالله، وليس مجرد كلمات تقال بلا وعي.

دعاء لتحقيق الصبر الجميل

يمكن للإنسان أن يدعو دائمًا بـ: "اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها"، لأن العبرة ليست فقط بما يحدث الآن، بل بما يقدره الله من نتائج في المستقبل، والتي قد تحمل الخير في صور لا ندركها في البداية.

حكمة الصبر وتدبير اللطيف

إن الصالحين، عند الابتلاء، لا يزدادون إلا جمالًا، كما يزداد الذهب لمعانًا بالنار، فهم يستخرجون من المحن أجمل ما فيهم، وتكشف المصائب عن معدنهم الأصيل. فديننا، الذي يقوم على الجمال، يجعل الصبر جميلًا، كما يجعل الهجر جميلًا، والسراح جميلًا، فإن كان الفراق بهذا الجمال،

فكيف يكون الوصل والإحسان؟

يؤكد النبي ﷺ أن "الصبر عند الصدمة الأولى"، إذ أن أول رد فعل يعكس قوة الإيمان وصدق التوكل. وهذا ما تجلى في موقف يعقوب عليه السلام، إذ لم يتردد لحظة في قوله: { فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ } ، فكلما كان الصبر فوريًا، كان أصدق وأعمق أثرًا.

تدبير الله اللطيف في قصة يوسف

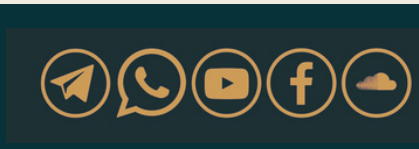

حين قال تعالى: { وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ} ، لم يكن مرور القافلة مصادفة، بل كان تدبيرًا إلهيًا محكمًا. فقد شاء الله أن ينقص ماء القافلة ليبحثوا عن بئر، وشاء أن تقع أعينهم عليه، وأن يرسلوا واردهم إليه. هذا التدبير الخفي هو سر اسم الله "اللطيف"، الذي اختصر قصة يوسف كلها، كما قال: { إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ } .

إذا أراد الله لك أمرًا، هيّأ له الأسباب، يسخّر القلوب والأحداث والأقدار، حتى تصل إلى ما قدّره لك، فهو القائل: { وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ} .

الأمل.. ولو بحبل يتدلى

حين أُدلي الدلو، أمسك به يوسف عليه السلام، متمسكًا بأي فرصة للنجاة. وكأن الرسالة هنا: لا تستهِن بأي أمل، ولو كان ضعيفًا، فقد يكون فيه الخلاص. فإن كان في يدك فسيلة، فاغرسها، وإن سنحت لك فرصة، فاستغلها، فالله قد يكون ينتظر منك خطوة واحدة ليفتح لك أبواب الفرج.

اللطف الإلهي في تفاصيل حياة يوسف

لم يكن لطف الله في إخراجه من البئر فقط، بل في كل تفاصيل حياته:

1- جعله محببًا لدى عزيز مصر، فأكرمه رغم كونه عبدًا.

2- ألهم الملك رؤية المنام، ولم يجد أحدًا يفسره سوى يوسف، فكان هذا مفتاح نجاته.

3- ساق له الأسباب حتى وصل إلى مكانته، بعد أن ظن الجميع أنه انتهى.

فما أعجب تدبير الله! لا يستعجل، لكنه لا يخطئ، يُمهِّد الأمور بصمت، حتى تأتي اللحظة المناسبة.

الإيجابية في رؤية الأحداث

حين رآه الوارد قال بفرح: { يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ }، رأى في الحدث خيرًا، رغم أنه لم يكن يعلم ما وراءه. وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن، يرى الخير في كل موقف، مهما بدا الأمر بعيدًا عن فهمه.

أما قوله تعالى: { وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ } ، فالمقصود أن الذين وجدوه أخفوه ليبيعوه سرًّا. ولكن، من الذي باعه؟ هناك قولان:

1- أن الذين وجدوه هم من باعوه بثمن بخس.

2- أن الذين باعوه هم إخوته، وهم الأرجح، لأن الذين وجدوه كانوا فرحين به، ومن غير المنطقي أن يبيعوه بثمن زهيد.

أي أن

1- الصبر الجميل هو الصبر الفوري، بلا جزع ولا شكوى.

2- تدبير الله لطيف، لا يُرى بالعين، لكنه يُحسُّ في النتائج.

3- إذا أراد الله أمرًا، سخّر له الأسباب، فلا تقلق من الطريق، المهم أن تثق بالمُدبِّر.

4- تمسّك بأي خيط من الأمل، مهما بدا واهيًا، فقد يكون هو سبيل نجاتك.

5- كن إيجابيًا في رؤية الأحداث، فقد يكون ما تراه شرًا، هو في الحقيقة طريق الخير.

{ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ }...

هذه خلاصة القصة، وهذا مفتاح الثقة بالله في كل شيء.

العز الحقيقي لا يُقاس بنظرة الناس

حينما قرر إخوة يوسف عليه السلام بيعه للقافلة خوفًا من افتضاح أمرهم، لم يكن أمامه سوى السكوت، فقد اختار أقل الضررين، إذ لو اعترف بحقيقته، لربما قتلوه ليتخلصوا منه نهائيًا. وهكذا، بِيع يوسف عبدًا وهو الكريم ابن الكريم، وسُلِب حقه وهو في نظر الله مكرَّم ومصطفى.

قال النبي ﷺ: "ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره" (البخاري). فكيف بمن باع أخاه، وبثمن بخس؟! كانوا فيه من الزاهدين، لأنهم لم يعرفوا قيمته، لكنه عند الله عظيم.

لا تنتظر أن ينصفك الناس.. إنصافك عند الله

لا تُحبط إذا لم يعرف الناس قدرك، فقد بِيع يوسف بأبخس الأثمان، وهو من أشرف أهل الأرض. فلك في قصته العزاء إن بَخَسَك الناس حقك، فثمنك الحقيقي عند الله، وليس في أعين البشر.

الناس قد يرفعون من لا يستحق، ويُهملون من هو خيرٌ منهم، كما ورد في الحديث: "مرَّ رجل فقالوا: هذا حري إذا تكلم أن يُسمع وإذا خطب أن يُنكح"،

ثم مر آخر فقالوا: "هذا حري إذا تكلم لا يُسمع وإذا خطب لا يُنكح"، فقال النبي ﷺ: "هذا الثاني خير من ملء الأرض من الأول". فكم من مجهول في الأرض، معروف في السماء، وكم من مغمور عند الخلق، وهو عند الله من المقربين.

العز الحقيقي في القلب.. والذل في المعصية

قد تبدو بعض المشاهد مشاهد مذلة، لكن العبرة ليست في الظاهر، بل في الباطن. يوسف عليه السلام في قاع الذل ظاهريًا، لكنه العزيز عند الله، بينما إخوته في موقف المتحكمين، لكنهم الأذلاء في الحقيقة.

قال الحسن البصري: "هم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البرازين، لا يزال ذل المعصية في قلوبهم"، فالعز في طاعة الله، والذل كل الذل في معصيته.

حتى في أشد اللحظات، كان يوسف هو العزيز، لأن { مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ } (فاطر: 10). وهذا ما فهمه أهل غزة، حينما وقفوا شامخين في وجه الظلم، فاستحقوا لقب "أهل العزة"، لأنهم اختاروا الكرامة على الخضوع، بينما خانهم من اختار الذل رغم امتلاكه القوة.

العزة في القرب من الله

الإمام ابن تيمية حينما سُجن، لم ير في ذلك إذلالًا، بل قال: "المأسور من أسره هواه، والمحبوس من حُبس قلبه عن الله". وحين أغلقوا عليه باب السجن، قال:

{ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ} ، مؤكدًا أن عزته ليست في المكان، بل في قلبه المليء بالإيمان.
فمن أراد العزة، فليرفع عمله الصالح، وليجعل وجهته إلى الله، فإنه وحده مانح العزة وسالبها.

الطمأنينة في علم الله وحكمته

حين أُلقي يوسف عليه السلام في الجب، لم يكن وحده، بل كان تحت عين الله، وعندما باعه إخوته بثمنٍ بخس، لم يكن ذلك تفريطًا في قدره، بل كان بداية لرفعة شأنه. { وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ} (يوسف: 19)، فالله يرى ويسمع، لكنه لا يتدخل فورًا لأنه عليم وحكيم ولطيف، وتلك الأسماء الثلاثة

تلخص القصة كلها:

1- عليم بكل ما يجري، فلا يغيب عنه شيء.
2- حكيم في توقيت الفرج وطريقة التدبير.
3- لطيف بعباده، حتى في الابتلاء، فهو يُدبر بحكمة ولطف.

قد تتساءل: لماذا لا يغيّر الله الظلم الآن؟ لماذا لا تُستجاب دعوتي فورًا؟ الجواب بسيط: لأنه حكيم.

الفرج قادم ولو تأخر

حين دعا موسى وهارون على فرعون، قال الله: { قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا } (يونس: 89)، ومع ذلك لم يهلك فرعون فورًا، لأن توقيت الإجابة ليس شأن العبد، بل حكمة الله. كذلك أصحاب الأخدود، احترقوا بنار الظالمين، لكنهم صاروا رمزًا للثبات، وانتقم الله لهم لاحقًا، وجعل قصتهم عبرة خالدة.

الحكمة في تأخير الفرج عظيمة، والمهم أن تبقى مطمئنًا لأن الله يعلم، ومجرد معرفتك بذلك كافية لتمنحك السكينة.

حين يكون العالم بك هو القوي الحاكم

تخيل أنك في موقف ظلم، وأحدهم يسرقك تحت تهديد السلاح، لكن هناك كاميرا مراقبة، وشخص قوي يراها—وليكن وزير الداخلية مثلًا - يراقب المشهد وعازم على رد حقك. حينها، لن تشعر بالخوف، لأنك تعلم أن حقك محفوظ والمسألة مسألة وقت.

فإذا كان هذا حالك مع بشر قد يخطئ أو يُغير رأيه، فكيف برب العالمين؟! الله يرى الآن كل ما يقع عليك من ظلم، وهو العليم الحكيم، فلا تقلق ولا تستعجل الفرج، فهو قادم لا محالة.

{ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ} (يوسف: 19) - هذه وحدها تكفيك طمأنينة وراحة، لأن الله ليس غافلًا، بل يُمهل بحكمة، ثم يُنصف بعدل. ففوض أمرك إليه، وكن مطمئنًا بأن العاقبة للمتقين.

التدبير الإلهي في قصة يوسف عليه السلام

يُظهر سياق قصة يوسف عليه السلام كيف أن تدبير الله يسير بحكمة مطلقة، حتى في الأقدار التي قد تبدو قاسية أو غير مفهومة في ظاهرها.

1- من العبودية إلى التكريم

بعد أن باع إخوة يوسف أخاهم بثمن بخس، قدر الله أن يكون المشتري هو عزيز مصر، أحد كبار رجال الدولة، مما شكل انتقالًا مفاجئًا في حياة يوسف من قاع المعاناة إلى حياة القصور والرفاهية. هذا التحول السريع في مصيره يؤكد أن الله غالب على أمره، حتى وإن بدا للناس أن الأمور تجري وفق المصادفة أو التدبير البشري.

2- حكمة العقم في نصرة الأنبياء

من لطف الله أن زوجة العزيز كانت عقيمًا، فكان ذلك دافعًا لها ولزوجها إلى التعلق بيوسف، ورعايته كابن بالتبني. هذه الحكمة الإلهية تكررت أيضًا مع امرأة فرعون، التي احتضنت موسى عليه السلام رغم أنه كان من بني إسرائيل، العدو الأول لفرعون. هنا يظهر كيف أن الابتلاء بالعقم كان وسيلة إلهية لاحتضان الأنبياء وحمايتهم في بيئات غير متوقعة.

3- التمكين التدريجي وفق السنن الإلهية

توضح الآيات كيف أن الله يسوق الأسباب لتحقيق مشيئته، حيث يُمهّد ليوسف الطريق نحو التمكين شيئًا فشيئًا. فانتقاله إلى بيت العزيز لم يكن مجرد تغيير مكاني، بل كان جزءًا من إعداد إلهي دقيق، حيث نشأ في بيئة تعزز قدراته، وتهيئه لمهمته القادمة.

4- سنن الله في الأحداث ودورها في تحقيق الغايات

يُبرز قوله تعالى: { وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ} (يوسف: 21) أن كل هذه التحولات لم تكن إلا خطوات ضمن خطة إلهية أكبر. كما أن { وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (يوسف: 21) تشير إلى أن التدبير الإلهي قد يكون غير مرئي للعقل البشري، لكنّه دائمًا يسير نحو تحقيق مقاصد الحكمة الإلهية.

5- التفاؤل في التعبير وأثره في تحقيق النتائج

عندما قال العزيز: { عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا } ، كان التعبير إيجابيًا، مما يلفت الانتباه إلى أهمية التفاؤل في التعامل مع الأقدار، حيث استجاب الله لهذا التفاؤل، وكان يوسف بالفعل سببًا للخير لاحقًا.

النتيجة

تؤكد هذه الأحداث أن التخطيط الإلهي دقيق ولا يخضع للحسابات البشرية، وأن كل ابتلاء أو تغيير في المسار يحمل حكمة قد لا يدركها الإنسان في لحظتها. فكل شيء يجري وفق نظام إلهي محكم، حيث يكون الخير مختبئًا أحيانًا في الأقدار التي تبدو مؤلمة.

علاء حامد
Alaa Hamed
الدورة الشرعية
للمهندس علاء حامد